النهار
السبت ٨ آذار ٢٠٠٣
١٧
AN-NAHAR Samedi 8 Mars 2003

"الهجرة الأخيرة" رواية جاد الحاج بالإنكليزية

أحلام البنفسج والحبّ المنقذ

رواية هجرة (*) بحثاً عن "السعادة"؟ كتبها الروائي والشاعر جاد الحاج بالانكليزية، مانحاً لغة العصر مساحة السهل الممتنع كرمى لعين القارئ العربي أولاً. فعنوان كل فصل من الرواية الآسرة حرف من حروب الابجدية العربية الأولى. هذا "المستغرب" لبس الشرق وهاجر الى الغرب وظل عربياً حتى آخر حرف من حكاية انسحاب من جذور تعلّقت به واعادته سالماً. أشرف، رجل الرواية، هاجر من ضيعته قانا، من وطنه لبنان، من العالم العربي مهد موهبته كاتبا وصحافياً. هاجر وعائلته الى اوستراليا ثم هاجر من عائلته وسقط في فراغ مرعب متوهماً ان لا خلاص منه الا بحب كبير، واستحالت المرأة لديه تعويذة ضد العدم. يلتقي كلير الكاتبة الهولندية في امستردام، كأنها ولدت لتهبه خمسة شهور حباً له طعم اكسير الحياة التي تغادرها مرغمة في حادث انهيار عاصف في المكسيك. وينهار أشرف عائداً في جنون الى حديقة الخوف واليأس رغم حبه لابنتيه وانشغاله بهما لوقت غير كاف لأب وابنتين. مركز عمله لندن، والابنتان في اوستراليا وأمه في قانا، وهناك اسرائيل. دوامة مؤلمة تدور به، ويبقى متشبثاً بالحب كمنقذ وحيد.

وفي زمن انتظاره للحب ثم الوقوع فيه ثم انتهائه سواء قسراً أو عمداً يظل أشرف غافلاً عن حقيقة هشاشة هذا الحب الذي لا يستطيع حمل مسؤولية منح سعادة دائمة. فالحب ذاته يبثّ فرحاً هائلاً لاغياً لليأس كي يعود فيهدي حزناً كبيراً له طعم الموت. حبه لزوجته التي انتهى بالطلاق، وحبه لكلير التي قضت، وحبه لدجيني التي مهما قربت منه ظلت بعيدة، كل هذا الحب مر بالروح الى الجسد، امتداد الروح المادي، حيث الاتحاد بالآخر تواطؤ ضد الحزن والموت. ومع استحالة التواصل يعود الألم والضياع أقوى من أي وقت. أقوى الى حد المرض، فجرح الروح يمتد الى الجسد، ويقع أشرف فريسة سرطان يهاجم غدده اللمفاوية.

إلا أنه كان يملك كنزاً ثميناً وهو لا يدري، نبع توازن واستقرار، صديق طفولته مروان وصديقته الانكليزية آن،

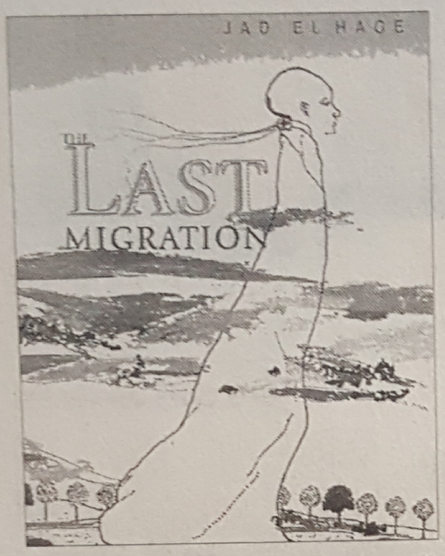

الصعبة، تسانده، ويرعاه طبيبه. وكم لفته الاهتمام المتبادل واللهفة الصادقة بين مرضى السرطان ومحبتهم العارمة للكل حيث كان يعالج. ومن كثرة الحب يكتب له الشفاء. ونلتقيه وآن للمرة الأخيرة في نهاية الرواية، آن زوجته وأم ابنه الذي لم يولد بعد، عائدين الى الوطن برفقة والدته التي التحقت به في لندن بعدما افترست اسرائيل اصدقاءها وأمنها ولم تبق لها ولو زهرة في قانا.

كل هذا وضعه جاد الحاج بالانكليزية في رواية كأنها قصيدة طويلة، جميلة. والمقتطفات من كتاب كلير الصغير التي تتوج بدايات كل الفصول، وليمة تدعوك الى تذوق نكهة عشق نادر حقيقي، تنساب تحت حروف الأبجد هوز" كأنها نهر جامع لفصول حياة أشرف إن في الشرق او في الغرب. وكل أحلامه، وكل ازهاره التي حملها هدايا للحب، وكل الاطباق الشهية التي هيأها لحبيباته كي يحافظ على خط حياته، استحقتها اخيرا صديقته آن، الوحيدة الباقية معه، قوية، ناعمة كزهرة بنفسج، هادئة في الصحو وفي العاصفة.

رواية جاد الحاج الثانية، ولأسباب كثيرة، دقت ابواب الغرب وحملتها اللغة الانكليزية الى من يهمه الأمر. وكمحترف جال جاد بين الكلمات وانتقى منها الساحر والساخر، وصادقاً جعلها مطواعة تقول في بساطة كيف ان سرّ السعادة خارج جنون الحلم قد تحمله زهرة بنفسج تقاوم في هدوء... وحبّ.

حياة أبو فاضل